المبحث الرابع

الرموز البدويَّة

الشِّعرُ ـ في معظمه ـ إشارةٌ ورمزٌ وتلويحٌ بالمعانِي الخفيَّة ، وإرادةِ الدَّلالاتِ الكامنةِ المتواريةِ خلفَ أستارِ الألفاظِ بمعانيها الظاهرة ، وقد عبَّر البحتري عن وعي الشعراء بهذه الحقيقةِ حين قال[1] :

والشِّعرُ لمْحٌ تَكْفِي إشارتُهُ وَلَيْسَ بالهذرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

لأنَّه لو خَرجَ إلى دلالاتِ الظَّاهرِ من الألفاظِ دونَ غيرها ، لكانَ أقربَ إلى الخطبِ والمواعظِ والأخبارِ منه إلى شِعرٍ يحكي عن نوازع النفس ، وأحوالِ العواطف والقلوب ، ويَشِي بما يعتلجُ في الخاطِرِ من مطالبٍ ورغباتٍ ، قد يعمدُ الشَّاعرُ إلى الإشارةِ إليها والرمز لها تقيَّةً وتستُّراً وتوريةً ، يمنحُ بها الشَّاعرُ نفسهُ قدْراً من الحريَّة تسمحُ له بالتعبير عمَّا يجولُ في قلبه ، كما قد يرى الشَّاعر أيضاً أنَّ الرمز والإشارة والتلويح تعطِي اللَّفظ دلالاتٍ في المعنى أرحبَ وأوسعْ ، وأقوى على ما يريد أن يدلَّ عليه ، ممَّا يجعلها في الشِّعر أجمل وأوقع من الألفاظ المباشرة ذات المعاني الظَّاهرة ، فيسلك الشَّاعر في سبيلِ هذا التعبير البعيدِ عن المباشرة ، أروقةً خفيَّةً تحمل من خلالِ الألفاظ رموزاً وإشاراتٍ إلى ما يرمي إليه ، يقول ابن رشيق : ((والإشارة من غرائب الشِّعر ومُلَحِه ، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلاَّ الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهي في كل نوعٍ من الكلام لمحةٌ دالةٌ ، واختصارٌ وتلويحٌ يعرفُ مجملاً ، ومعناه بعيدٌ عن ظاهرِ لفظه ...))[2].

---

(١) ديوان البحتري ، ١/٩٩ .

(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١/٣٠٢ .

وقد ذكر ابن رشيق أن من أنواع الإشارة التلويح[١] ، ومن أنواعها الرمز[٢] ، وقال إنَّ ((أصلُ الرمز الكلام الخفيّ الذي لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتَّى صار الإشارة . . .))[٣] .

كما ذكر أنَّ من أنواع الإشارةِ أيضاً التورية والكناية[٤] ، وذهب السكَّاكي إلى أنَّ ((الكناية تتفاوت إلى تعريضٍ وتلويحٍ ورمزٍ وإيماءٍ وإشارة))[٥] فجعل الرمز من تفريعات الكناية ، وقال : ((فإن كان فيها نوع خفاءٍ فالمناسب أن تُسمّى رمزاً . . .))[٦] .

وقد كانت الرموز البدويَّة من أكثر الرموز دلالاتٍ على معاني الشوقِ والحنين ، والنزوع إلى المكان الأوَّل ، أو الحب القديم ، أو الزمان الماضي... وما إلى ذلك ، وكان توظيف هذه الرموز في الشعر يعطي دلالاتٍ قويَّةٍ على عمق الحنين ولواعجه ، ولذلك وجدنا الشعر العربي يحفل منذ القدم بذكر صبا نجد ، والعقيق ، والنار ، والبرق ، وغيرها .

ممَّا تواضع الشعر على دلالاتِهِ القويَّة على الحنين ، وما يحمله ذكر هذه الرموز من تلويحٍ بالرغباتِ والإشارة إليها ، دون أن ينصَّ على ذلك ناقدٌ أو شاعر ؛ فمن قال إنَّ صَبا نجدٍ إذا هبَّتْ شفتِ الهموم ، أو أعادت الشجون؟! ، ومن قال إن العقيق إذا سال أجرى الدموع وأحرق القلوب؟! ، ومن قال إن الإبلَ إذا سرت بليلٍ وعليها الهوادج ، والقباب ، أورثت الحزن ، وملأت النفسَ بالوحشة؟! ، ومن قال إن النَّار التي تشتعل في الغضا دون غيرها نارٌ محرقةٌ للقلب ، تشعل الحبّ وتؤجِّج الذكريات؟! ، ومن قال إن البرق إذا أومضَ أذكر

---

(١) العمدة ، ابن رشيق ، ١/٣٠٤ .
(٢) انظر : المصدر السَّابق ، ١/٣٠٥ .
(٣) انظر : المصدر السَّابق ، ١/٣٠٦ .
(٤) انظر : المصدر السَّابق ، ١/٣١١ .
(٥،٦) الإيضاح ، القزويني ، ص٣٣٩ .

الحبيب وقدح زناد الشوق ، وهاج الحبّ؟! ، إنما هو كما قال ابن خفاجة : ((وأمَّا أسماءُ تلك البقاع ، وما انقسمت إليه من صفةِ نجدٍ أو قاع ، فإنَّما جاء بها على أنَّها خيالاتٍ تنصب ، ومثالاتٍ تضرب ، تدلُّ على ما يجري مجراها ، من غير أن يصرِّح بذكراها ، توسُّعاً في الكلام ، يُكتفى بها دلالةً عليها ، وعبارةً ، ويستحسنُ إيماءةً إليها وإشارة ...))[1].

فدلَّ ابن خفاجة بقوله أنَّ هذه الأسماء وما يجري مجراها ، ممَّا يُذكر في الشعر الأندلسيّ ، إنما هي رموزٌ للحنين ، وليس فقط إلى مواقعها في نجد والحجاز ، وإنما هي مثالٌ للحنين إلى الأمكنةِ في أيّ مكان ، فهي رمزٌ لحنينِ النفسِ الإنسانيَّة إلى ما حنّت إليه ، ونزعت له .

فـ ((الذاكرة بيت ، إنَّها بيت الماضي ، وحول هذا البيت يدور شعر الحنين إلى الأوطان ، حيثُ الأمكنة التي كانت تعجُّ بالحياة ، وحظيت بالألفة ، ولو لم يكن لها إلاَّ هذا لكانت جديرةً بأن يتوجّهُ إليها العربيّ بشيء من شعره ...))[2].

وقد ذكر الشعراءُ الأندلسيُّون الأراضي البدويَّة ، لما حملته في مخيلتهم من دلالاتٍ على عالمٍ نقيٍّ فطريّ ، حفل التراث منه بقصصِ العشاق العذريين ، وأحاديث الصبابةِ والهوى ، ممَّا يؤجِّج في الشعر الحنين إلى ما ترمز أماكنُ العشق العذري إليه في الشعر ، من حبٍّ فطريّ ، وعشقٍ يسمو عن رغبات النفس .

كما حنُّوا إلى الأراضي البدويَّة ، لأنَّها أيضاً أرض النبوَّةِ ومهبط الوحي ، التي قد يحول بعدُ المسافاتِ بينهم والرحلة إليها للحجِّ والزيارة ، ولذلك كان يحمل ذكرها في الشعر حنيناً لأداء فريضة الحجّ والاعتمار ، وزيارة قبر خاتم

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، من تعليقه على إحدى قصائده ، ص٢٠٤ .

(٢) شاعريّة المكان ، دكتور جريدي المنصوري الثبيتي ، دار العلم ، جدة ، ط . الأولى ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م ، ص٢٢ .

النبيين ﷺ ، كما أنّها تمثّلُ في الخيال الشعري الأندلسيّ ما دلّت عليه هذه الأراضي في أوّلياتِ الدعوة الإسلاميَّة من صفاء روحيّ ، فهي تُعدُّ رمزاً روحيًّا عميقاً ، فيه دلالاتُ الطهر والإيمان الذي قد يرتفع بالشّعر إلى المناجاة ، وقد كانت الأندلس تموجُ بالفتن والاضطرابات ، وتتساقط فيها الدويلات ، ولذلك قوي الحنينُ إلى الجذور البدويَّة في الشعر ، لما تمثّلُهُ في المخيلةِ من عالم فطري طاهر ، بريء نقيّ روحي .

ولذلك وجدنا أن رموز الأماكن الحجازيَّة والنجديّة في الشعر الأندلسي يتشابه فيها النسيب البدويّ ، بالمديح النبويّ ، كما قد يختلطان ، ووجدنا ذكرها في هذا الشعر يحمل دلالاتِ الحنين إلى محبوبة جنح الشاعر إلى النسيب العذري في وصفِ حبّه معها ، أو الحنين إلى زيارة النبي ﷺ ، الذي لبس الشاعر في مديحه عباءة العاشق البدويّ .

كما أنَّ الشاعر قد يذكر هذه الأماكن يرمز بها إلى ذكرياتِ شبابٍ ، أو ذكريات مكان أندلسيّ قريب ، رمز له بالبدويّ البعيد ، لما تحمله البداوة من وهج الحنين ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

إن الحجازَ مغانيه بأندلسٍ ... ألفاظُها طابقَتْ منها معانيهَا

فتلكَ نجدٌ سَقَاها كلُّ منسجمٍ ... من الغمامِ يحيّيها فيحييها

وبارقٌ وعُذيبٌ كلُّ مبتسمٍ ... من الثغورِ يجلّيها مُجلّيها

وإن أردتْ ترى وادي العقيقِ فردْ ... دموعَ عاشِقِها حُمْراً جواريها

فقد كان الشاعر الأندلسيُّ ، يجدُ ضالّتهُ في الإبانةِ عن حالاتٍ من الحنين ، من خلالِ رموز الأماكن البدويَّةِ وأسمائها ، ((إنَّها أسماء مشحونةٌ بشعورٍ حنينيّ دافئ لا سبيل إلى فهمه على نحوٍ مخطئ ، ويمكن أن يقودَ فحسب إلى الذكرياتِ وهي أسماءٌ يعود إليها المرء بفكره أكثر من أن يرحل إليها في

---

(١) ديوان ابن زمرك ، ص٥٠٠ .

الواقع))[1] وتعدُّ نجد من أكثر الأماكن البدويَّة التي ترمزُ للحنين ، والشعر حنينٌ كلُّه ، ولذا كثر ذكر نجد في سياقاته المختلفة وتشوَّق الشعراء الأندلسيُّون إليها تشوُّق الشعراء البدو ، ونزعت نفوسهم إلى خيامها ، وشيحها ، وعرارها ، ونسيمها وتمثلُّوها في المخيلة الشعريَّةِ تمثلَّهم أرضاً من الأحلام ، تمنوُّها ، ورمزوا بها إلى ما تاقوا له وأحبّوه ، فقد كان الحديث عن نجد ـ منذ الشعر الجاهلي ـ لا يفرغ حتَّى يبدأ ولا يملُّهُ الشعراءُ والسامعون .

فبرزت نجدٌ في الشعر لارتباطها بالحبّ العذريّ وقصصه ، ولذلك كانت رمزاً له ، وكثر تمثلُّها في سياقِ النسيب البدويّ والاتّكاء عليها في الحديثِ عن لواعج الهوى وأشواقه ، ومن ذلك قول أبي الحسن علي بن جودي[2]:

أحـــنُّ إلى ريـــح الشّـــمال فإنَّهـــا تـــذكِّرنا نجـــداً ومـــا ذِكْرُنـــا نَجْـــدا
تـــمـــرُّ على ربعٍ أقامَ بـــه الـــهـــوى وبُدِّلَ مـــن أهليـــهِ جاثـــمـــةً رُبْـــدَا
فيا ليتَ شِـــعْري هـــل تَقَضَّـــى لبانـــةٌ فارتشـــفُ اللَّميَّـــا واعتنـــقُ القـــدَّا

فـ ((الشاعر حين يتعامل مع أسماء الأماكن ـ الكلمات ـ فإنما يتعامل معها وهي مشبعةٌ بالمعاني الوجدانيَّة . . .))[3] .

فذكر الشاعر نجداً ، وذكر إضافةً إلى نجد (ريح الشَّمال) وخصَّها بالذكر لبرودتها ، كما وَصَفَها بالرَّبعِ الذي أقام به الهوى ، وفيه دلالة رمز نجدٍ في المخيلة الشعريَّة الأندلسيَّة على الحب والوجد ، أمَّا قوله (بدلت جاثمةً رُبْداً) فهو رمزٌ بدويٌّ أيضاً دلَّ به على تحوُّل الحال عنده إلى فراقِ من يحبّ ، الذي تمنَّى عودته فقال :

(يا ليت شعري هل تقضَّى لبانة ...).

---

(١) صبا نجد ، باروسلاف ستيكيفيتش ، ص١٩٧ .
(٢) نفح الطيب ، المقرّي ، ٥٧/٧ .
(٣) شاعرية المكان ، دكتور جريدي المنصوري ، ص١٦ .

وابن جودي في قصيدةٍ أُخرى ، يذكر نجداً أيضاً ، فيقول[1] :

سَلِ الرَّكبَ عن نجدٍ فإنَّ تحيَّةً ... لساكنِ نجدٍ قد تحمَّلَها الرَّكبُ
وإلاَّ فما بالُ المطيِّ على الوجى ... خفافاً وما للريحِ مرجعُها رطبُ

ومن الأمثلة التي تدلُّ على قوَّة حضور نجدٍ في الحنين ، وأنَّها في الخيال الشعري الأندلسيّ رمزٌ لعالمٍ مثاليّ مليءٍ بالحبّ ، والصباباتِ والهوى ، والنقاء ، والصفاء ، قول ابن خاتمة[2] :

تهبُّ نسيماتُ الصَّبا من رُبَا نجدِ ... فينفحنَ عن طيبٍ ويعبقنَ عن ندِّ
وما ذاكَ إلا أنهنَّ يَجُلْنَ في ... معاهدِنا بين الأثيلاتِ والرَّندِ
هناكَ الثَّرى يُربى على المسكِ طيبهُ ... ودوحاتُهُ تُزْري على العنبرِ الوردِ
معاهدُ نهواها وتهوى لقاءنا ... بها قد مضى حكم العفافِ على الودِّ
على حينِ لا واشٍ يفوهُ بريبةٍ ... ولا عاذلٌ يعدو ولا كاشحٌ يُعدي

فنسيم الصَّبا يحمل روائح الطيب والندّ ، والأرض مسك ، والدوح عنبرٌ وردٌ ، والهوى نقيٌّ عفيف لا يشكو العشاق فيه من واشٍ ، أو عاذلٍ ، أو كاشح ، عالمٌ مثاليٌّ سحريٌّ يرمز به الشاعر في الخيال إلى كل عزيزٍ معشوقٍ مطلوبٍ يحنُّ إليه ، ولذلك قال متمنياً[3] :

ألا ليت شعري والمنى غايةُ الهوى ... أأبصرُ نجداً ، أم أحلُّ ربا نجدِ؟!
وهل أنقعن من ماءِ ظمياءَ غُلَّةً ... على كبدٍ لم يبق منها سوى الوجدِ؟!
وهل أنزلن من حيِّها ـ جاده الحيا ـ ... منازلَ قد جلَّتْ منازلُها عندي؟!

فتمنّى واعترض بجملةٍ واقعةٍ في قوله : (والمنى غاية الهوى) دلَّ بها على أنَّ حديثَ النفس بالأمنيات ، غايةٌ في الحبّ والعشق ، ولذلك رمز بنجدٍ إلى

---

(١) نفح الطيب ، المقَّري ، ٥٨/٧ .

(٢،٣) ديوان ابن خاتمة ، ص٦٥ .

الهوى الذي رغبَ في عودته ، فردَّد اسمها وقال (أأبصر نجداً أم أحل ربى نجد) ورمز بظمياء ، وهو اسمٌ بدويٌّ لمن يحبّ التي تمنّى وصلها ، وقوله (ظمياء) مناسبٌ لقوله (أنقع غلةً) أي أروي الظمأ ، وهو اسم يحمل رمز الحاجةِ إليها ، والرغبة في وصلها ، الذي شبَّهه بالرَّي ، وقوله أنقع غلَّةً أي : أشفي غليلي وأروي عطشي[1] ، وقوله (هل أنقعنَّ) و (هل أنزلنَّ) تمنٍّ للوصال ، والنزول في حمى من يحبُّ ، وحيّها الذي دعا له بالسقيا ، في جملة ـ جاده الحيا ـ المعترضة ، وقال (منازل قد جلَّتْ منازلها عندي) فدلَّ بذلك على عظمة قدر المكان في نفسه وهو ما يشبه قول المتنبي (لك يا منازلُ في القلوب منازل)[2] وهو المعنى الذي حملَهُ ذكر نجدٍ في القصيدةِ ورمز به الشاعر إلى معاني الشوقِ والحنين .

ومن الأمثلة الأخرى على اتخاذ نجدٍ في الشعر البدوي الأندلسيّ ، رمزاً للوجد ، قول أبي بكر بن حبيش[3] :

يا أهل نجدٍ! ومن وجدٍ دعوتكُمُ ... والبينُ قد سدَّ فيما بيننا السُّبُلاَ
هبوا رضَاكُم لمشعوفٍ بحبِّكمُ ... راضٍ بحكم هواكم جارَ أو عَدَلا
صلوا غريباً عن الأوطانِ منقطعاً ... يهدي حنيناً إلى الأحباب متَّصلا

فقد كانت نجد رمزاً للهوى والعشق وعذريتهما ، وكان الحديث عن نجدٍ يستدعي حديث الهوى ، كما أن الحديث عن الهوى العذري يستدعي نجداً ، ولم تحظ أرضٌ في الشعر بمثل ما حظيت به نجد ، من دلالاتِ الحنينِ والأشواق ، ولذا أكثر الشعراءُ الأندلسيُّون من ذكرها ، لم يثنهم عن هذا الذكرِ بُعدُ الديارِ والمسافات ، بل بالعكس ، أثرى البعدُ الأشواقَ ، وأجَّجها ، لما

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (نقع) .

(٢)ديوان المتنبي ، ٣٦٦/٣ ، والبيت :

لك يا منازلُ في القلوبُ منازلُ ... أقفرت أنت وهنَّ منك أواهلُ

(٣) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ، لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٠٣ .

تحمله في الشِّعر من رمزٍ للحبِّ والحنين ، فحيُّوها ، ودعوا لها ، واستسقوا ، وسلَّموا على أهلها ، وتشوَّقوا إليها ، يقول أحمد بن محمَّد الهوّاري[1] :

إذا جئتَ نجداً ـ كرَّم اللهُ عهدهُ ـ فسلِّم على أهلِ المنازلِ من نجدِ
لئن حالَ بعدُ الدّار بيني وبينهم فإني لأرعاهم على ذلك البعد

فهي رمزٌ للحنين لما حنَّ إليه الشعراء ، وكانت نجد بدلالاتها عليه ، وحميميَّتها معبراً يبثُّونَ من خلاله شكواهم ، ونجواهم ، يقول ابن زُمْرُك متشوِّقاً إلى غرناطة من قصيدةٍ فيها[2]:

سقى اللهُ من غرناطةٍ روضَ منشئٍ وقابلني منه بتحفةِ قادمِ

ثم يقول[3] :

تحنُّ إلى أرضِ الحجازِ قلوبُنا وكم معلمٍ منها بتلك المعالمِ
أليسَ بها نجدٌ سقى الغيثُ تربَها وعللَّني منها بتلكَ النَّواسمِ
وكم موردٍ بين العُذيبِ وبارقٍ تُحدِّثني عنه عذابُ المباسمِ
وما احمرَّ وجهُ الأرضِ منها لريبةٍ ولكن حياءً من بكاءِ الغمائمِ

فتشوُّقُهُ إلى غرناطة ، دلَّ فيه على حميميَّةِ الشوق أكثر ذكره نجداً في الشِّعر ، التي ضمَّ إليها الحجاز ، والعقيق ، والعذيب ، وبارق ، وهي أماكن تزيد من تأجّج العواطف في الشعر ، وتمنحه جاذبيَّة البداوة ، التي تضفي عليه شذّى أعرابيًّا طيِّب المتنسَّم .

وقد يحشد الشاعرُ أمكنةً عدَّة ، يكثّف فيها بهذا الحشد عنصر الحنين والتشوق ، وقد كان ذلك لأن التشوُّق بدويُّ الجذور ، فالرِّحلة كانت تتطلَّبها حياةُ البداوة للرَّعي ، والبحث عن مساقط المياه ، فإذا ما غادرَ البدوُ المكان الذي عاشوا فيه زماناً ، تشوَّقوا إليه ، وإلى ما خلّفوا من ديارٍ ألفوها ، وكانت

---

(١) نفح الطيب ، المقَّري ، ٣٦٩/٧ .

(٢،٣) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٣٣٤ .

لهم بها صحبةً وهوى ، ورفقة ، ومواطن ألفة ، فارتبطت الديارُ بالحنين ، وذكرى المكان بالشوق ، ولذلك كان المكان البدويُّ رمزاً من رموز الحنين ، يقول ابن خاتمة[1] :

أشاقكَ سلعٌ أم هفت بك ذكراهُ ... فساعاتُ هذا الليل عندك أشباهُ؟
وهل ذا البُريقُ التاحَ من نحو رامةٍ ... وإلاّ فلمْ باتَتْ جفونُكَ ترعاه؟
وهل ما سَرَت من نسمةٍ ريحُ أرضها ... وإلاّ فهذا الجوُّ تعبقُ ريَّاهُ؟
نعم شاقني سلعٌ وذكرى عهوده ... فآهٌ لأيّامٍ تقضَّتْ به آهُ
وما القصدُ سلعٌ إن نظرتَ ورامةٌ ... ولكن لجرّيْ من غَدَا فيهِ مثواهُ

فقوله (ما القصد سلعٌ ورامة) دلَّ به على أنَّها رموز تشوُّقٍ لأيٍّ مما تشتاقُ النفسُ الإنسانيَّة إليه ، وذكرُ هذه الأماكن البدويَّة ، يرمز ويوحي بتوهُّجِ هذا الشَّوق ، ولذلك كثَّف الشاعر دلالة الحنين بذكره بعد ذلك رمز نجد ، فقال[2]:

أحبَّةَ قلبي أهل نجدٍ بعيشكم ... ترى يبلغُ المشتاقُ ما يتمنَّاهُ؟

وفيها[3] :

خليليَّ من نجدٍ بودّكما انشقا ... نسيم الصَّبا هل عطَّر البانُ ريَّاهُ
وهل جرَّ أرداناً على أجرع الحمى ... فأهدى تحايا رنده وخزامَاه؟
ألا هل إلى نجدٍ سبيلٌ لذي هوى ... سقى مدمعُ العشَّاقِ نجداً وحيَّاهُ؟
ولا بَرحَتْ أنفاسُهمْ تفضحُ الصَّبا ... هبوباً لدى أسحاره وعشاياهُ

فذكر نجداً ، والحمى ، ونسيم الصَّبا ، والبان ، والرند ، والخزامى ، وهي كلُّها رموز حنينٍ وتشوُّق ، وقد كانت القصيدةُ في معظمها حشداً لكثيرٍ من الأماكن البدويَّة ، والعناصر البدويَّة ، داخلتها العذريَّة في بثِّهِ الشكوى (رفقاً بشاكٍ بكم) [4] ووصفه ذل الهوى (ألا فارحموا ذا عزَّةٍ ذلَّ للهوى) [5] وغيرها ، مع غلبة ذكر أسماءِ الديار والأماكن البدويَّة ، والعناصر البدويَّة ، من نبات ورياح ، لأنَّها أدلُّ برموزها على الهوى والوجد .

(١-٥) ديوان ابن خاتمة ، ص٧٠ .

ولذلك ذكر الشعراء الأندلسيُّون الأماكن البدويَّة في المدائح النبويَّة ، وتشوَّقوا إلى النبي ﷺ بذكر الديار ، لدلالتها القويَّة على معاني الحنين ، كما تشوَّقوا إليه عليه الصلاة والسلام ، من خلال النسيب العذريّ ، الذي حمَلوه المعاني الروحية ، وسموا به أكثر ، فصرفوه من صاحبةٍ إلى سيّد المرسلين ، فكان الحبّ للرَّسول ﷺ ، يتخذ في الشعر النبويّ ، صورةَ حبٍّ لصاحبةٍ وتشوّق لديارها .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الصَّباغ الجذامي[1] :

أرومُ لبانةً صدعتْ فؤادي ... وكيفَ بها وقد بَعُدَتْ مرامَا

إذا نفحتْ سُحَيْراً ريحُ نجدٍ ... أرى الأشواقَ تزدحمُ ازدحامَا

وإن لاحَتْ قِبابٌ للمصلّى ... أذوبُ بفرطِ لوعاتي غرامَا

ألا هل نهلةٌ من ماءِ سلعٍ ... فتشفى من ظَمَا مَضْنى أوامَا

ذكرتُ البانَ بانَ الغورِ ذكرى ... مُعَنّى شجوهُ يشجي الحمامَا

فتشوُّق الشاعر إلى النبي ﷺ وتداخل التعبير عن هذا التشوق بذكر الأماكن البدويَّة ، برمزيَّتها الدالةِ على الحنين ، فذكر نجداً ، وسلع ، وبان الغور ، وشكى الغرام ، والشجى ، في نسيبٍ عذريٍّ صرفه كلُّهُ إلى التشوُّق للنبي ﷺ فقال[2] :

فلو أنَّ الحبيبَ قَضَى بقربي ... لحُزتُ مراتباً شَرُفَتْ مقامَا

سأبكي مزلاً قد بانَ عنّي ... وأُهدي نحومربعَهِا السَّلاما

وقد تأتي القصيدة النبويَّة كلُّها مشحونةً بأسماء أماكن بدويّة ذاتُ رموز حنينيَّة مكثفة تدلُّ على التشوق والحنينِ دون تصريحٍ بذكر المصلّى ، كما وجدنا في القصيدةِ السابقة ، ومنها قول أبي الحسن الششتري المشهور بمدائحه النبويَّة[3] :

---

(١) ديوان ابن الصَّباغ الجذامي ، ص٧١ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص٧٢ .

(٣) ديوان أبي الحسن الششتري ، ص٤٩ .

للعيسِ شوقٌ قادَهَا نحوَ الحِمَى لـمَّا دعَا أجفانَها داعي الكَرى
أَرْخِ الأزمَّةَ واتَّبِعْها إنَّها تدرِيْ الحمى النجديَّ مع مَنْ دَرَى
حُثَّ الرِّكابَ فقد بَدتْ سلعٌ لنا وانزلْ يمينَ الشِّعبِ من وادي القُرَى
واشتمَّ ذاكَ التُّربَ إذ ما جئتهُ تُلفيه عندَ الشَّمِّ مِسْكاً أذْفَرَا
فإذا وصلتَ إلى العقيقِ فقل لهم قلبُ المتيَّمِ في الخيامِ قد انبرى
عانقْ مغانيهم إذا لم تلْقهمْ واقنعْ فقد يُجزي عن الماءِ الثَّرى
يا أهل رامةَ كم أرومُ وصالكمْ وأبيعُ فيه العمرَ لوما يُشْتَرى
وأشدُّ عروةَ قربكِمْ بيدِ الرِّضى والدَّهرُ يفصِمُ ما أشُدُّ من العُرَى
أهلاً وسهلاً كلٌّ ما ترضونه فلقد رضيتُ وما رأيتم لي أرَى

فتشوَّقَ إلى الرسول ﷺ من خلال التشوُّق إلى الأماكن البدويَّة .

فقد كانت أسماء هذه الأماكن تحمل شحنةً حنينيَّةً قويَّة ، ترمز إلى ما حنَّ الشاعر إليه من الزيارة أو الحجّ والاعتمار . . . وغيرها ، مما هو متعلِّقٌ بتوقِ الروح إلى ما يُرمزُ إليه بالمكان القديم .

ويكثر في المدائحِ النبويَّة ذكر المكان البدويّ ، في خلال معاني التوبةِ والعودة عمَّا سلفَ من ذنوب ، يقول ابن زُمْرُك في قصيدةٍ أولها[١]:

هذا الصَّباحُ صباحُ الشَّيبِ قد وَضَحَا سرعانَ ما كانَ ليلاً فاستنارَ ضُحَى

والشَّاعر بعد هذا الافتتاح يذكر في أبياتٍ تراخي العمر[٢] ، وقلَّةَ ما أعدَّ من الأعمال[٣] ، ثم يذكر نجداً ، وخلف نجدِ البدويَّة تستترُ صورُ كثيرةُ من الذكرياتِ والحنين والشَّوق ، فيقول[٤]:

يا أهلَ نجدٍ سقى الوسميُّ ربعكَمْ غيثاً يُنيلَ غليلَ التُّربِ ما اقترحَا
ما للفؤادِ إذا هبَّتْ يمانيةٌ تُهديه أنفاسُهَا الأشجانَ والبُرحَا
يا حبَّذا نسمةٌ من أرضِكُمْ نفحتْ وحبَّذا ربربٌ من جوِّكمْ سَنحَا

(١-٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٣٧٥ .

فهل كان خلف (نجد) والتشوُّق إليها شبابٌ تولّى كان العيش فيه غضًّا والحبُّ وارفاً ، والقلبُ لاهياً؟ قد يكون ذلك! ؛ لأنَّها جاءت مباشرةً بعد وصف الشيب ولأنَّه وصف بعد نجدٍ شيخاً ضَجِرا من الذنوب فزعاً للذكريات طوراً ، وللنجاة إلى الله تعالى أطواراً ، فقال[1] :

في ذمَّـــة الله قلـــبي مـــا أعلّلـــهُ بـــالقربِ إلاَّ وعـــادَ القلـــبُ مُنْتَزحَـــا

ثمَّ قال متَّخذاً من المدح النبويِّ طريقاً للخلاصِ من الذنوب[2] :

يا ربِّ لا سببٌ أرجـــو الخـــلاصَ بـــه إلاَّ الرســـولَ ولطفـــاً منـــكَ إن نَفَحَـــا

ومن هنا . . . نجدُ أن الأماكن البدويَّة ، كانت ترمز في الشعر الأندلسيّ ، إلى ما يتشوَّقُ الشعراءُ إليه ، زماناً مضى ، أو ذكرياتٍ تولَّت ، أو مكاناً قديماً ، أو مقدَّساً ، أو حبًّا لاعجاً ، وكثيراً ممَّا نزعت نفوسهم إليه ، وحنَّتْ له ، فاتخذ الشعراءُ له من رموزِ البداوةِ نجداً ، أو العقيق ، أو سلع ، وغيرها ، لأنَّها تحملُ وهجاً بدويًّا حميميًّا دافئاً قويَّ الإيحاء بالشوقِ والحنين .

ومن الرموز البدويَّة التي حفل بها الشعر البدويّ الأندلسيّ ، أسماءَ معشوقاتِ الباديةِ ، وملهماتِ الصحراء ، وقد ذكر ابن رشيق أنَّ وجود هذه الأسماء في النسيب إنما كان على الرمز ، لا على الحقيقة ، فقال : ((وللشعراءِ أسماءُ تخفُّ على ألسنتهم وتحلو في أفواههم ، فَهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو ليلى ، وهند ، وسلـمـى ، ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وريَّا ، وفاطمة ، وميّة ، وعلوة ، وعائشة ، والرَّباب ، وجمل ، وزينب ، ونعم ، وأشبَاههنَّ ، ولذلك قال مالك بن زعبة الباهليّ ، أنشده الأصمعي :

مـــا كـــان طِبِّـــي حبُّهـــا غـــير أنَّـــه يقامُ بســـلمى للقـــوافي صـــدورها)) [3]

(١، ٢) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٣٧٦ .

(٣) العمدة ، ابن رشيق ، ١٢٢/٢ .

فقولُ الشَّاعر (تُقامُ بسلمى للقوافي صدورها) يحملُ دلالةً قويَّةً على أنَّ هذه الأسماء ، تفتحُ في الشّعر برموزها أبواباً من المعاني والدلالاتِ ، وتمنحه الكثيرَ من الإيحاءاتِ التي تجعلُ وجودها في هذا الشعر مماثلاً بدلالاتِهِ وإشاراتِهِ البدويَّة ، لوجود أسماء الأماكن البدويَّة ، فقد درج الشعراءُ منذ القدم على ترديد أسماء كثيرة في الشعر فنحن ((إذا ما نظرنا فيما ينسب إلى الأعشى من شعر ، ألفيناه يتغزَّل فيه بهريرة ، وقتيلة ، في أكثر من موضع ويذكر أيضاً ليلى ، وسلمى وسعاداً . . . والذي لا شكَّ فيه أن حظَّ المرأة المتغزل بها من الوجود الحقيقي لا يكادُ يهمُّ أحداً ، وهذا يعني أن البحث في هويَّات المعشوقاتِ تاريخيًّا أو تحديد أوضاعهنَّ ، يظلُّ فيما نرى بحثاً بلا فائدة ..))[1].

وكذلك كان الأمر في شعر امرئ القيس فقد ((تعدَّدت أسماءُ المحبوباتِ المعشوقاتِ في شعر امرئ القيس . . . ولا يمنع أبداً أن يشارك في الاسم الواحد أكثر من حبيبة ولا مانع أن يُطلق على الحبيبةِ أكثر من اسم ...))[2].

ولم يكن ذلك إلاَّ لأنَّ التنويع في ذكر الأسماء يخضع في معظمه لمتطلباتِ السِّياق ، والحالة النفسيَّة التي كان عليها الشَّاعر ، والغرض الذي أراده من وراء هذه الأسماء ، فهي لا تدلُّ على معشوقاتٍ معيَّناتٍ ، وإنَّما تدلُّ على حالةٍ شعريَّةٍ خاصَّة تندرج انفعالاتها تحت هذه الأسماء .

((والحقيقة التي ما أحسبُ أنَّها تتعرَّض للشكِّ هي أن ليلى،ولبنى،وعزَّة، وبثينة ، وعفراءَ ، وهنداً ، ودعداً ، وسعاد ، كل هذه أسماء ما أظنُّ أنها تعين مسمَّيَاتٍ ممتازات ، وإنما هي أسماء نساءٍ اتخذها الشعراء لهذ المثل الأعلى الذي كانوا يلتمسونه ، ويطمحون إليه حين كانوا يتغنون الحب ، سواءً منهم في ذلك الشعراءُ المعروفون أو المجهولون ، ليلى ، ولبنى ، وبثينة ، بالقياس إلى

---

(١) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، ص٦٥ .

(٢) امرؤ القيس ، شاعر اللهو والطلل ، ص٥٨ .

هذا النوع من الغزل أسماء تشبه هيلانة بالقياس إلى القُصَّاصِ من شعراء اليونان المتقدِّمين ، لسنا ندري أوجِدَتْ حقًّا بل أكبرُ الظنِّ أنها لم توجد وإنما هي المثل الأعلى في الجمال والحبّ ، واللين والرقّة والدعة ، وغير ذلك من هذه الخصال التي يتغنَّاها الغزليون))[1] .

فالتلويحُ بأسماء معشوقاتِ البادية في الشعر الأندلسيّ ، والنسيب العذري منه خاصَّةً ، فيه استلهامٌ لقصصِ العشقِ والهوى بما فيها من عوالم السِّحر والفتنةِ الكامنة وراء هذه الأسماء ، كما أن فيها استحضاراً لصورةِ المرأة البدويَّةِ بسحرها ، وجاذبيَّتها الآسرة ، التي زادها الخيالُ مثاليَّةً من خلال هذه القصص وأشعار المحبين الأعراب ، وأخبارهم ، التي نشأت في أحضانِ البادية ، وارتبطت فيها أسامٍ مشهورة بمعشوقاتٍ معيَّنات ، ولذلك كان يكثُرُ وجود هذه الأسماء البدويَّة في الشعر الأندلسيّ استرفادًا من الشعراء لمعاني العشقِ والصَّبابة ، والهوى ، ومشاعر الشوق ، والحنين ، التي يثيرها هذا الوجود ، ورمزاً لها .

وقد كان هذا الحضور ملهماً أيضاً في مقدِّماتِ القصائد التي تفتحُ بالنسيب ، وتأتي فيها هذه الأسماء لأنها تفتح باب القول والقصيد ، وتمنحُ الشاعرُ انتشاءً مستلهماً من سحرِ هذه الأسماءِ وبداوتها ، ممَّا يهيؤه للحديث في كثيرٍ من المعاني ، ولكلّ هذا وغيره ، ممَّا يكمن تحت رموز الأسماء البدويَّةِ قال الشاعر إنَّها : (تُقَامُ بسلمى للقوافِي صدُورُها) .

كما قال يوسف الثَّالث[2] :

لئن أبكروا عهداً تقادمَ أو رسماً ... فلا سعدتْ سعداي ولا سَالَمتْ سلمى

وإن أقسموا أن العهودَ تُنُوسِيتْ ... فلا أجزلت للوصلِ حظًّا ولا قَسْمَا

ولا بلغت نفسٌ بلبنى لبانةً ... ولا أسْعَفَتْ ليلى ولا أنعمتْ نُعمى

---

(١) حديث الأربعاء ، طه حسين ، ٢١٨/١ .

(٢) ديوان يوسف الثَّالث ، ص١٦٦ .

أســـامٍ تزيـــدُ العاشـــقينَ تحيُّـــراً ... قد اتفقَتْ معنى كمـا اختلفـت إسمـا
وهـــل هـــذه الأسمـــاءُ إلاَّ إشـــارةٌ ... لمستفهمٍ في شانـهـا يُحسـنُ الفهمـا
فأقسمُ مـا بـدعٌ مـن القـولِ إنَّهـا ... تضيء ضياءَ البـدرِ في سُـدْفةِ الظُّلمـا
وإنَّ لـهـا الثغرَ الـذي شـبَّهوا بـه ... لآلـئَ عقـدٍ راقٍ في جيـدها النَّظمَـا

فدلَّ يوسف الثَّالث بهذا القول على وعي الشاعر الأندلسيّ بدلالاتِ هذه الأسماء الرَّمزية ، وقدرتها على احتواء معانٍ تشي بالبداوة ، والعذريَّة ، فكان لها في هذا الشِّعر رنينٌ يضاهي رنين أسماء الأماكن والديار ، والعرصات ، وشجيراتِ البان والعرار ، وما إلى ذلك .

ومن أكثر هذه الأسماء البدويَّة شيوعاً ؛ اسم (ليلى) معشوقة المجنون ، الذي جرى في الشعر تداوله رمزاً لما يُشتهى ويُتمنّى ويُعْشق ، ويُغنّى له وفيه ، ممَّا اختلف فيه شاعرٌ عن آخر ، وحالةٌ عن أخرى ، فلكلٍّ ليلاه ، وكلٌّ يغني من خلال رمزها ما يهواه ، وقد كانت ليلى في الشعر كنجدٍ فيه ، لها وهجُها ، وسحرُها الخاصّ بها ، يقول عبد الله الطيب : ((وأشهرُ هذه الأعلام ليلى ، وقد خلصت إلى اللهجاتِ العاميَّة ، واتصلت برموز المتصوِّفة ، فأكسبها ذلك قدسيَّةً لا تبلى ...))[1].

ومن أمثلةِ وجودِ ليلى الرمز في الشعر البدويّ الأندلسيّ ، قول ابن خفاجةَ من قصيدةٍ وصف فيها الشيب في سياق تداعي الذكريات : (ولقد جريتُ مع الصِّبا جريَ الصَّبا)[2] ، وفيها يقول[3] :

اقرأ على الجـزعِ السـلامَ وقـل لَـهُ ... سـقّيتَ مـن سـيل الغمـامِ الممطـرِ
بـيني وبينـكَ ذمَّـةٌ مرعيَّـةٌ ... فـإذا تنوسـيت المـودَّةُ فـاذكرِ
وإذا غشـيتَ ديـارَ ليلـى بـاللِّوى ... فاسـأل ريـاحَ الطيـبِ عنـها تُخْبَـرِ

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ٢٨٢/٣ .
(٢،٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٤٩ .

فضمَّ إلى اسم ليلى من رموز البداوة اللّوى ، والجزع ، والبرق ، وقد كان هذا التغنّي بالهوى في سياق وصف الشباب وغضارتِهِ وهو سياقٌ حنينيٌّ لأيَّامٍ سلفت ، وعصرٍ مضى لا سبيلَ لعودته ، اشتاقه الشاعر ووجدَ ضالّتهُ في التعبير عن هذا الشَّوْقِ من خلال المسميَّات البدويَّة ، ومنها (ليلى) .

ويذكر ابن زُمْرُكْ اسم (ليلى) في سياق تشوُّقه لصحبه[١] ، من قصيدةٍ كثرت فيها المعاني العذريَّة ، والرموز البدويَّة ، ومنها : النسيم العليل[٢] ، والبارق النجديّ[٣] ، والربع باللوى[٤] ، والعذيب وبارق[٥] ، وفيها يقول[٦] :

رعى الله ليلى لو علمتُ طريقَها ... فرشتُ لأخفافِ المطيِّ بها خدّي

ويقول أيضاً[٧] :

فهل عند ليلى نعَّمَ الله ليلَها ... بأنْ جفوني ما تملُّ من السُّهدِ

فقد وجد ابن زُمْرُك أن التشوُّق أكثرُ حنيناً ، وتوهُّجاً ، إذا توارى خلفَ أستارِ الرموز البدويَّة ، ومنها (ليلى) التي تشوَّق إلى صحبه ، فذكرها .

وتأتي ليلى كثيراً في سياق النسيب العذريّ والتشوُّق للأحبّة ، ومن ذلك قصيدةُ ليوسف الثَّالث يقول في أوَّلها[٨] :

لعلَّ خيال العامريَّةِ يخطرُ ... بأجفانِ عانٍ قد براهُ التسهُّرُ

وفيها يذكر الغرام ، والشوق ، وعذريَّة الوجد[٩] ، كما يصف مضاربها فيقول[١٠] :

---

(١) انظر : تقدمة القصيدة ، ديوان ابن زُمْرُكْ ، ص٣٧٩ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص٣٨١ .

(٣) المصدر السَّابق ، ص٣٧٩ .

(٤-٧) المصدر السَّابق ، ص٣٨٠ .

(٨) ديوان يوسف الثَّالث ، ص٦٥ .

(٩،١٠) المصدر السَّابق ، ص٦٦ .

لـهـا البيتُ مشدوداً طنابـاهُ بـالعُلى تطـلُّ[1] بمثـواهُ الكواكـبُ تزهـرُ

فدلَّ بالصُّورةِ على المثال العذريِّ ، والعالم السِّحري الذي كان للبداوة في المخيِّلة الشعريَّة الأندلسيَّة حيث الخيمة مضروبة في السَّماء والكواكب حولها مزهرة منيرة ، وفيها يقول[2] :

أبـخـلاً علينـا مـا أرى أم قطيعـةً فعن أيِّ غايـات الـبلا أنـت تقصـرُ

هنيئـاً لليلـى غـير داءٍ مخـامرٍ ولا مضمر شـكوى لمـا هـي تظهـرُ

وقوله (هنيئاً لليلى . . .) نظر فيه إلى قول كثيِّر عزَّة[3] :

هنيئـاً مريئـاً غـيرَ داءٍ مخـامرٍ لعـزَّةَ مـن أعراضـنا مـا اسـتحلَّتِ

ومن أكثر الأسماء البدويَّة شيوعاً في الشِّعر الأندلسيّ اسم (سلمى) ويأتي ذكره غالباً في سياقِ النسيب العذريّ ، ومعاني الهوى والعشق البدويّ ، فقد افتتح ابن فركون قصيدةً عذريَّةً باسم سلمى ، فقال[4] :

وما كنتُ أهوى ربـعَ سـلمى وإنَّمـا أحبُّ الحِمَى من أجلِ من سكنَ الحِمَـى

والافتتاح بالاسم البدويِّ يفتح بابَ المعاني العذريَّة في القصيد ، ولذلك ذكر ابن فركون (سهم لحاظها)[5] ، وكيف أنَّها (تحكي غزالاً ممنَّعًا)[6] ، والطيف (فياليت سلمى تبعثُ الطيفَ في الكرى)[7] ، والصَّبا (ويا ليتها تهدي سلاماً مع الصَّبا)[8] ، والشوق[9] :

ويـا أيُّهـا القلـبُ المشـوقُ إلى مـتى بقيـتَ كمـا شـاءَ الغـرامُ متيَّمَـا

وغيرها من معاني العشق والهوى ، التي عمَّق دلالة الحنين فيها والشوق ورمز لها ، ذكر اسم سلمى البدويِّ .

---

(١) من الهامش يقول المحقق : إنه كذا بالأصل ، ولعلَّ الصواب (تظلُّ) ، وهو ما نراه أيضاً .

(٢) ديوان يوسف الثَّالث ، ص٦٧ .

(٣) ديون كثير عزّة ، ص٥٦ .

(٤-٩) ديوان ابن فركون ، ص٢٦١ .

وكذلك يأتي اسم (سلمى) بدلالاتِهِ العذريَّة في قصيدةٍ بدويَّة لابن مرج الكحل ، يقول في أوَّلها[1] :

سرَوْا يـــخـــبطونَ اللَّيلَ واللَّيلُ قد سَجَا   وعـــرفُ ظـــلامِ الأفـــقِ منـــهُ تأرَّجَــا

وفيها يقول[2] :

ومـــمَّـــا شَـــجَاني أنْ تَـــألَّقَ بـــارقٌ   فقلـــتُ فـــؤادِي خافقـــاً متوهِّجَـــا

وشيبَ بياضُ الصُّبحِ منه بـــحـــمـــرةٍ   فـــأذكرنـــي ثغـــراً لســـلمى مُفَلَّجَـــا

وهي قصيدة ضمَّ إلى معانيها العذريَّة ، رموزاً بدويَّةً أخرى من مسرى الظعائنِ بليلٍ ، وتألُّق البرق الذي يشبه تبسُّم الثَّغر ، وفي القصيدة نجد ((أصداء هذا الجوّ البدويّ بأريجه الفوَّاح ، حيثُ القوافل تصدع سكون اللَّيل ، والنجوم تتناثر في السَّماء كقطع الياسمين ، والبرق يتألّق فيهيج الذكرى ، ويثير الأشجان ، وتبدو صورة المحبوبة الغائبة بثغرها المفلَّج))[3].

أمَّا يوسف الثَّالث ، فيكاد يقوم شعره العذريُّ على هذا الاسم الذي يكثر من ذكره ، فيقول في قصيدةٍ يصف طلعتها[4] :

وطلعـــةُ ســـلمى في حـــمَانَا كأنَّهـــا   علـــى أفـــقِ العليـــاءِ بـــدرٌ مـــتمِّمُ

يقول[5] أقصرْ عن حـــمـــاها فإنَّهـــا   إذا سَنَحَتْ تصمي من اللَّحـــظِ أســـهمُ

وفيها[6] :

وهاتيـــكَ سَـــلْمَى لا عـــدمتُ قبولَهـــا   منـــايَ إذا مـــرَّتْ وعـــادتْ تســـلَّمُ

يـــثير محيَّاهـــا الجميـــلُ صـــبابتي   فيُغْـــرَى فـــؤادٌ بـــين جـــنبيَّ مغـــرمُ

(١،٢) ديوان ابن مرج الكحل ، ص٤٨ .

(٣) ابن مرج الكحل ، حياته وشعره ، دكتور فوزي عيسى ، ص٣٠ .

(٤) ديوان يوسف الثَّالث ، ص١٢١ .

(٥) هكذا في الديوان ، وقد يكون الصحيح (يقولون) لإقامة الوزن .

(٦) ديوان يوسف الثَّالث ، ص١٢١ .

فقد يستحلي الشاعر اسماً بعينه فيكثر ذكره في قصيدة، ويكنّي ويرمز به عمَّن يحبُّ، أو ما يحبّ، ولا يمنع ذلك من أن يذكر أسماء أُخرى، ولكن قد يكون لاسمٍ بعينه عنده قدرةٌ إيحائيَّةٌ أكثر على المعاني التي يريدها الشاعر، ولذلك وجدنا يوسف الثَّالث يتلذَّذ بترديد هذا الاسم لافي قصائدَ مختلفة، بل في القصيدةِ الواحدة، يقول[1]:

يقولون اقِصُر عن هوى من تُحبُّهُ ... وشرحُ حديثي في هوايَ يطولُ
أما عرفوا سلمى وأنَّ خيالَها ... حبيبٌ على بُعدِ المزارِ وَصُولُ
أما سلموا في حسنِ سَلْمى وإنَّه ... إذا حلَّ في قلبٍ فليس يحولُ

ومن الأسماء البدويةِ التي تخفُّ على ألسنةِ الشعراء لدلالاتها العذريَّة، وإيحاءاتها بالهوى والعشق، اسم (لبنى)، يقول ابن الخطيب في أوَّل قصيدةٍ عذريَّة[2]:

ما لقلبي إذا هفا البرقُ حنَّا ... وصَبَا للنسيمِ في أرضِ (لبنى)
وإذا ما الظلامُ حلَّ عُرَاهُ ... عائدٌ[3] الشوق والغرام فجُنَّا

فذكر من رموز البادية - إضافةً لاسم لبنى -: البرق والصَّبا، وذكر من المعاني العذريَّة الوفاء، والعفاف.

ويقول ابن الحدَّاد في سياقٍ عذريٍّ أيضاً[4]:

رويداً فذا وادي لبينى وإنَّه ... لوردُ لباناتي وإنّي لظامئُ
ويا حبّذا من آل لبنى مواطنٌ ... ويا حبّذا من أرض لبنى مواطئُ
ميادين تهيامي ومسرح ناظري ... فللشوقِ غاياتٌ به ومبادئُ

فذكر اسم (لبنى) الذي رمزَ به للعذريَّةِ والهوى، وذكر ما جانس الاسم في

---

(١) ديوان يوسف الثَّالث، ص١٠٥
(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب، ٢/٥٨١.
(٣) هكذا في الديوان، والصواب في نظرنا (عاده).
(٤) ديوان ابن الحدّاد، ص١٠٤.

قوله لباناتي ، وهو جمع لبانة أي حاجة[1] ، ثم مدح المكان الذي هي به بقوله (يا حبّذا) وتكراره الصيغة ، ثم ذكره السَّبب في قوله (ميادين تهيامي) ، والتحبّب للمحبوبةِ بذكر المكان ، وإضافته لاسمها ، وتمنّي الإقامة فيه طريقة عذريَّة يبين بها الشاعر عن شدّة الشوق ، وقوّته في نفسه .

ومن الأسماء البدويَّة التي أحبّ الشعراء ذكرها ، اسم (أسماء) ، يقول ابن مرج الكحل[2] :

سرى الطيفُ من أسماءَ والـنجمُ راكـدُ ... ولا جفـنَ إلاَّ وهـو في الحـيِّ راقـدُ

شفى ألمي لـمَّـا ألـمَّ بمضـجعي ... وبـات يـدانيني وكـانَ تباعُـدُ

ألـمَّ علـى رغـمِ الرَّقيـبِ ودونَنـا ... علـى عـدوانِ الـدَّهرِ يبـدٌ فدافـدُ

سقى عهدَها عهدُ السَّحابِ ولم يكـن ... على العهـدِ لـولا أنْ سـقتهُ المعاهـدُ

معاهـدُ تـذكي حرقـة الكبـدِ الـتي ... تكابـدُ مـن آلامهـا مـا تُكابـدُ

فذكر الشَّاعرُ في هذه الأبياتِ من المعاني البدويَّة في وصفِ الهوى مسرى الطيف الذي كان ينعتُ بقطعه المسافاتِ رغم بعدِ الديار ، فقد كانت ((طريقته في الغزل تشبه طريقة نسَّابي الأعراب من حيث الاعتماد على العناصر البدويَّة من ألفاظٍ وصورٍ وأسماء)) [3] ، ومن هذه الأسماء أيضاً (نُعمى) ، يقول ابن الأبَّار من قصيدةٍ قصرها على وصفِ الهوى ولواعجه ، قال في أوَّلها[4]:

أحْسِـنُوا العطـفَ عليهـا مُهَجَـا ... وجـدَ الحـبُّ إليهـا مَنْهجَـا

وذكر فيها اسم (نعمى) الذي رمز به للهوى العذري البدويّ ، فقال[5]:

لا وأنفـاسٍ لنُعْمـى جَعَلَـتْ ... مَرْحفـاً روضَ الـرُّبى أو مَـدْرَجا

ورسـالاتِ هـوًى جـاءتْ بـهـا ... فأفـادتْ كـلَّ قلـبٍ ثلجَـا

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (لبن) .

(٢) ديوان ابن مرج الكحل ، ص٥٠ .

(٣) ابن مرج الكحل ، حياته وشعره ، دكتور فوزي عيسى ، ص٢٩ .

(٤) ديوان ابن الأبَّار ، ص١١٣ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص١١٤ .

مـــا نَقَضْـــنَا بالتَّصـــابـــــي راحـــةً   قـــد شـــدَدْنَاها عليهـــا مُهَجَـــا

فأقسم بأنفاسِ نُعمى ورسالاتِ الهوى ، أنَّه ما ترك التصابي في الهوى ، وكنّى عن نقضِ العهدِ بنفض الراحة ، في قسمٍ أراد أن يدل به على الوفاءِ وحفظ العهد ، وضمَّ في هذه القصيدة إضافةً لاسم (نعمى) وما يرمز له من رقة الهوى ، ما زاد من بداوتها ، بذكره من رموز الأماكن : منعج ، وسلمى ، وأجا ، والمنعرج ، وأثرى الجوَّ بدويًا بتصويره مشهد الهوادج والحمول[1]:

إنَّ في الـهـــــودجِ حمـــراءُ الحلـــى   من بناتِ الحـــيِّ تُصْـبي الـهـــودجَا

والمطايا[2]:

لو ترانا بالـــهـــوى نشـــكُو الجـوى   والمطايـــا تَحْتَنَـــا تشـــكو الوجَـــا

فقد أكثر الشعراءُ الأندلسيُّون من ترديد كثيرٍ من الأسماء البدويَّة ممَّا ذكرنا أمثلةً عليه ، سوى اسمين منهما لأشهر معشوقتين عرف بهما عاشقاهما ، وهما (عزَّة ، وبثينة) ، يقول ابن رشيق ((وأمَّا عزَّة وبثينة فقد حماهما كثير وجميل ، حتَّى كأنهما حرَما على الشعراء)) [3].

وقد ورد اسم بثينة في الشعر الأندلسيّ ، ومنه قول ابن اللُّبانة الداني في قصيدةِ مدح[4]:

جمعـــتُ وشـــعري في بســـاطك مثلمـــا   جُمعت بثينـــة في الـــهـــوى وجميـــل

وابن فركون في قصيدةِ مدح أيضاً[5]:

وهامت بحبِّ الـهـــامِ فهـي بثينـــةٌ   وليلـــى تفانـــى قيسُـــها وجميلُهـــا

(١،٢) ديوان ابن الأبـَّار ، ص١١٥ .

(٣) العمدة ، ابن رشيق ، ١٢٢/٢ .

(٤) ديوان ابن اللّبانة الداني ، ص٨٥ .

(٥) ديوان ابن فُركون ، ص٢٢٢ .

وقد ورد اسم بثينة وجميل عند حفصة الركونيّة عندما أرسلت لابن سعيد تستزيره[1]:

فعجِّل بالجواب فما جميلُ إباؤكَ عن بثينةَ يا جميلُ

والمُلاحظ أن اسم بثينة ، لم يذكر كرمزٍ لمعشوقةٍ أو كإشارةٍ لما يحمله من دلالاتِ الحبِّ والهوى فيه ، كما في أسماء (لبنى) أو (ليلى) أو غيرها ، وإنَّما ورد كإشارةٍ على قصَّةِ هذين العاشقين وقوَّة ارتباطهما الروحي حتَّى أصبحت تذكر في هذا الشعر من باب التمثُّل بها ، وليس من باب استحضار المعاني العذريَّة الكامنة وراء رموز الأسماء البدويَّة .

وقد يأتي الشعراء بأسماء عدَّة في القصيدةِ الواحدة ، وهي كما ذكر ابن رشيق : ((ربَّما أتى الشعراءُ بالأسماءِ الكثيرةِ في القصيدة ، إقامةً للوزن ، وتحليةً للنسيب)) [2].

وقد كان من أوَّل من أكثر من ذكر أسماء المعشوقاتِ في القصيدةِ الواحدة امرؤ القيس ، الذي جاء في المعلَّقة بأسماءَ وكنى عدَّة ، ومنها : أم الحويرث ، وأم الرباب ، وعنيزة ، وفاطم[3] ، ومن أمثلة ذلك في الشعر الأندلسيّ قول ابن الزَّقاق ، مخاطباً الديار[4] :

كأن لم تكوني للأحبَّةِ منزلاً ولا عبثت فيكِ الربابُ ولا هندُ

وقد تذكر النساءُ بالكنى كما وجدنا في شعر امرئ القيس ، ومَن بعده من الشعراء العذريين ممَّن قد يلجأون لذلك تقيةً وتستُّراً ، حتَّى لا يشهر الشاعر باسم من يحب ، كما قال النَّابغة الجعدي[5] :

---

(١) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، تحقيق . دكتور إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٩٩٣م ، ١١٨٥/٣ .

(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١٢٢/٢ .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص٢١ .

(٤) ديوان ابن الزَّقاق ، ص١٤١ .

(٥) الكامل ، المبرّد ، ٥٠٠/٢ .

أكـــني بغـــير اسْـــمِهَا وقـــد علـــمَ اللهُ خفيَّـــــاتِ كـــــلِّ مُكْتَـــــتَمِ

وكقول أحدهم[1] :

أُكْنِـــي بغـــيرِكِ في شـــعري وأعنيـــكِ تقيَّـــةً وحـــذاراً مـــن أعاديـــكِ
فـــإن سَـــمعتِ بإنســـانٍ شُـــعِفْتُ بـــه فإنَّمـــا هـــو ســـترٌ دونَ حبِّيـــكِ

وكذلك ذكر الشعراء الأندلسيُّون النساءَ بالكنى فكانت في الشعر رموزاً بدويَّةٍ تمنحه دلالاتِ الهوى العذريّ ، ومن الكُنى البدويَّة التي ذكرها الشعراءُ الأندلسيُّون (أم مالك) والتي اشتهرت بها (ليلى) معشوقة المجنون ، يقول ابن زُمْرُكْ من قصيدةٍ أوَّلها[2] :

معاذَ الـــهـــوى أن أصحبَ القلب ساليًا وأن يشـــغلَ اللـــوّامُ بالعـــذلِ باليَـــا

وفيها[3] :

خليلـــيَّ إنّـــي يـــومَ طارقـــةِ النَّـــوى شقيتُ بـــمـــن لو شـــاء أنعَـــمَ باليَـــا
وبـــالخيفِ يـــوم النَّفـــرِ يـــا أم مالـــكٍ تخلفـــت قلـــبي في حبالـــكِ عانيَـــا

وهو متأثر فيها بقصيدة المجنون المشهورة التي أولها[4] :

تـــذكرت ليلـــى والســـنينَ الخواليـــا وأيـــام لا نخشـــى علـــى اللَّهـــوِ ناهيَـــا

وفيها يقول[5] :

وإن الـــذي أمْلَـــتْ يـــا أمَّ مالـــكٍ أشـــابَ فويـــدي واســـتهام فؤاديـــا

وقول ابن زُمْرُك (وبالخيف يوم النفر) ، ذِكرٌ لمكان الالتقاء في الحجّ ، وهو ما كان يحدث في الأراضي الحجازيَّة ، ممَّا جرى ذكره في الشعر العذريّ ، ومنه قول المجنون[6] :

---

(١) مصارع العشاق ، ابن سراج القارئ ، دار صادر ، بيروت ، ١٦١/٢ .
(٢،٣) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥١٤ .
(٤) ديوان مجنون ليلى ، ص٢٥١ .
(٥) المصدر السَّابق ، ص٢٥٣ .
(٦) المصدر السَّابق ، ص١١٣ .

ولم أرَ ليلى غير موقف ساعةٍ ... ببطن منى ترمي جمارَ المحصَّبِ

ومن الكنى البدويَّةِ أيضاً (أمّ عمرو) [1] ، وقد كان يكثر ذكرها في الشعر العذريّ ، يقول أبو عامر بن الحمَّارة[2] :

يقلِّبُني الأسى جنباً لجنبٍ ... كأني فوقَ أطرافِ الرِّماح

دعاني الحبُّ نحوك أمَّ عمروٍ ... فطرتُ إليكِ خفَّاق الجناح

وفي القصيدة : يشكو طول الليل[3] :

أيا ليلُ طلتَ عليَّ حتَّى ... كأنَّك قد خُلِقْتَ بلا صَبَاحْ

والزفرات (أردِّدُ زفرةَ المضنى)[4] ، والأقدار الجارية بالتفرُّق (هو القدرُ المتاحُ جرى علينا)[5] ، وفي الشِّعر يرتفعُ صوت الشجى والأسى والشكوى ، إضافةً للشَّوقِ والحنين الذي زاد في توهّجه ورمز له ذكر (أمّ عمرو) البدويَّة .

وقد تُذكر معشوقات الباديةِ بألقابها ، ومنها (العامريّة) و (المالكيّة) وفيهما دلالات انتسابٍ عذريَّة ترمزُ للهوى النقي الصافي ، يقول ابن الأبَّار في (العامريّة)[6]:

أما بعدَ عُتبِ العامريَّة من عتبى ... لقد قَطَعتْ حتَّى الولائدَ والكتبَا

إذا زُرتُها لاقيتُ حجباً من القَنَا ... وبيضُ الظُّبى تحمي البراقع والحُجْبَا

---

(١) يقول كثيّر عزَّة :

ألم تسألي يا أمَّ عمرو فتخبَري ... سلمت وأسقاك السحابُ البوارقُ

ديوان كثيّر عزّة ، ص١٢٩ .

ويقول جميل بثينة :

فهل تجزينّي أم عمرو بودِّها ... فإن الذي أخفي بها فوقَ ما أُبدي

ديوان جميل بثينة ، ص٦٨ .

(٢،٣،٤،٥) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٩٩.

(٦) ديوان ابن الأبَّار ، ص٦٨ .

والقصيدة ، وصف فيها الشاعر ضنّها عليه بالوصل ، وإعراضِها عنه وغير ذلك من المعاني العذريَّة ، ولقب (العامريّة) يستهوي ابن الأبّار كثيراً ، ولذلك يردِّدُهُ في قصائدِه البدويَّة يرمز به لمعاني العشق والهوى ، ويستلهم منه في ذلك .

فهو يقول من قصيدةٍ عذريَّةٍ أُخرى[1] :

يفنّدني في العامريَّةِ لُوَّمي ... وليس هواهَا بالحديثِ المرجّمِ

وفيها أيضاً[2] :

من العربيَّاتِ الرَّعابيبِ تنتمي ... لأشرفِ بيتٍ في هلالٍ وأكرمِ

محجَّبةٌ من دونها ذبَلُ القَنَا ... تأطَّرَ منها فوقَ غصنٍ منعَّمِ

فقد كان ذكرُ هذه الأسماء والألقاب البدويَّةِ ، يفتحُ في الشعر باب قصائدَ تغنّي الهوى والعشق والصبابة ، كما أنَّه تحت رموزها يستحضر الخيال الأندلسيُّ عوالمَ البداوة ، من صور المنعةِ والحماية للبدويَّاتِ ومن مشهدِ الظعائن والحمول والارتحال ، في مثل قول ابن الأبّار من القصيدة السَّابقة[3]:

أقمت وسارت غير قلبٍ مشيَّعٍ ... ركائبها بين الخيام مخيّمُ

فالتغني في الشعر الأندلسيّ بالعربيات الأعرابياتِ ، تغنٌ بالبداوة ، وما تمثّلُهُ قصصُ عشاقها في النفس ، من جمالٍ روحيٍّ لمشاعر قديمة ، ظلّ ترديدُها في الشِّعر يُفسِّرُ بالشوق والتوق إليها ، والحنين إلى الأراضي التي نشأت فيها ، وهو حنينٌ يشدُّ الشعر بهذه الرموز بأواصر رُحمى للديار المعشوقةِ البعيدة ، وكلُ ما كانت تمثّلُه في النفس الأندلسيَّةِ العاشقة ،التي تشعر بقوّة الانتماء إليها ، فتسعى لتأصيل هذا الانتماء ، يقول ابن الأبّار ذاكراً المالكيَّة[4] :

---

(١) ديوان ابن الأبّار ، ص٣٠٢ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص٣٠٤ .

(٣) المصدر السَّابق ، ص٣٠٣ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص٢٢٦ .

بكـــت لبكـــائي المالكيَّـــةُ فـــالتقى بحكم النَّـــوى اليـــاقوت أحمـــرَ والـــدُّرُ
وما زوّدتني غـــيرَ إيـــمـــاءةٍ كفَـــت وحســـبيَ عُـــرْفٌ لا يقابلـــهُ نكْـــرُ

والقصيدة في الفخر والمدح ، وهو فيها بعد أن يذكر الهوى ، وقلّة الصَّبر ، والهجر ، والقطيعة[1] ، يفخر بالنسب العربي فيقول[2] :

وأجمـــعُ بـــأوٍ[3] في إخـــاءٍ مجمَّـــع كفانا انتخـــاءٌ[4] أن إخوتنـــا فهـــرُ[5]

وفيها[6] :

من العـــربِ العربـــاءِ في ســـرِّ يعـــربٍ صَفَا للمعـــالي منـــهم الســـرُّ والجهـــرُ
أقـــاموا ملـــوكَ الجاهليَّـــةِ عصـــرها وما ازدانَ في الإسلامِ إلاَّ بـــهـــم عصرُ

فَذِكْرُهُ المالكيَّة في أوَّل القصيدةِ ، وَوَصْفُه حبَّه لها ، وقولُه عنها[7]:

عجبتُ لـــهـــا راضَ الـــوداعُ جماحَهـــا وعهدي بـــهـــا غضـــى تُـــزارُ فتـــزوَرُّ

فيه إيحاءٌ قويُّ الدلالة على عمق الشعور بالعروبة ، والانتماء للأجدادِ ، وقوَّة التعصُّب ـ في ديارٍ بعيدةٍ أجنبيَّةٍ ـ للعرقِ العربيّ الذي تغنَّى شعراءُ الأندلس به ، وظلّوا ينشدون أشعارهم مفاخرين بانتسابهم له ، وهو ما جاء تحت دلالةِ الرَّمزِ في الاسم البدويّ الذي فتح في الشّعر باب الفخر العربيّ ، وهو ما كان يأتي أيضاً من خلال نسبةِ الصاحبةِ إلى الأعرابيَّة ، أو نجد ، أو الحجاز ، من مثل قول ابن الأبَّار[8]:

وعلّقْـــتُ أعرابيَّـــةً دارُهـــا الفـــلا تصيفُ على نجدٍ وتشتو علـــى حُـــزوى

(١،٢) ديوان ابن الأبَّار ، ص ٢٢٦ .
(٣) البأو : العظمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (بأي) .
(٤) الانتخاء : العظمة والكبر والفخر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نخا) .
(٥) فهر : قبيلة وهي أصل قريش ، وهو فهر بن غالب بن كنانة ، وقريش كلهم ينسبون إليه ، انظر : اللِّسان ، مادة (فهر) .
(٦) ديوان ابن الأبَّار ، ص٢٢٧ .
(٧) المصدر السَّابق ، ص٢٢٦ .
(٨) المصدر السَّابق ، ص٤٣٣ .

وقول ابن الأبَّار أيضاً[1]:

نجديَّةٌ اتــهــمــت تقضــي مناسِــكَها فلم تَدَعْ يومَ طافت بــالحجيج حِجَــى

وقول ابن هانئ[2]:

فكيفَ بــهــا نجديَّــةٌ حــالَ دونَهــا صــعاليكُ نجــدٍ في متــونِ الصَّــلادِمِ

وقول ابن الخطيب[3]:

يــا أيُّهــا القمــرُ الحجــازيُّ الــذي تُجْلَــى بغرَّتِــهِ الــديَّاجي السُّــودُ

فقد كانت رموز الأسماء والألقابِ والكنى البدويَّة ، لمعشوقات البادية ، وملهماتِ الصحراء ، حاضرةً في الشعر البدويّ الأندلسيّ ، وتشي في هذا الشعر بحميميَّة الهوى والعشق البدويّ ، والحنين إلى ما تاقَ الشعراءُ إليه ، ممَّا يمنح الشعر شوباً من دفءِ البداوةِ ، وسحرها .

وقد كان من رموزِ البداوةِ أيضاً البرق ، الذي كان البدو يراعونه ، ويعدُّون عدد برقاتِهِ أملاً في الغيث والخصب ، لأنَّهم أتباعُ ما يرونه فيه من إيماضٍ وتألُّق ، للرجاءِ في المطر ، فعليه كان اعتمادهم ومعوَّلهم في مقامهم وظعنهم ، ومن هنا ارتبط البرقُ بمعاني الشوق والحنين للغيث والكلأ ، وارتبط بالديار والنجعة والمكان الذي يتخذونه لذلك .

وإذ يستحيلُ على البدويِّ ـ في البعد ـ أن يرى محبوبتَه المقيمةَ في مضارب أهلها ، فإنَّ ما يقرِّبها له ، ويؤنس وحدته ، هذا اللَّمحُ المتألِّقُ المشعُّ من ديارها ، الذي يضيء بمروره وتألُّقِهِ نفسه ، ويُشعل بإيماضه الحنين إليها ، فيرى فيه منها تحيَّةً وسلاماً ، ويرى فيه منها شبهاً .

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص١١٠ .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣٠٨ .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٢٨٧ .

ومن هنا نجدُ أن البرق البدويَّ ظلَّ يتألَّقُ في الشِّعر الأندلسيّ ؛ لأنَّه تحت رمز البرقِ تكمنُ معاني الشوقِ ، والحنين ، وتوهُّجِ الذكرياتِ وخفق القلوب ، وترقرقُ الدموع ، يقول ابن خفاجة[1] :

أبى البرقُ إلاَّ أن يحنَّ فؤادُ ... ويكحلَ أجفانَ المحبِّ سهادُ

فذكر معنى الحنين الذي يؤجّجهُ رؤية لمع البرق ، وفي ذلك أيضاً يقول محمد بن إبراهيم بن سليمان[2] :

خليليَّ شيما عارضاً لاحَ برقُهُ ... إلى أين يهوي برقُهُ المتبعِّقُ[3]

ركامٌ[4] إذا احمومى[5] وقطَّب وجهه ... تبسَّم فيه برقُهُ المتألِّقُ

حرامٌ على ذي خُلَّةٍ شامَ مثله ... سنا بارقٍ أن لا يُرى يتشوَّقُ

فخاطب الخليلين ، وذكر شوم البرق ، والتطلُّع إليه أين يمطر على العادة البدويَّة فقال (إلى أين يهوي) ، وأراد معرفة أين يكون مطره الغزير الذي دلَّ على غزره كثرُ تبعُّقِ برقه ، ثم دلَّ برمز البرقِ على معنى الحنين والشوق في قوله (تبسَّم) و (المتألِّق) وفي قوله (حرامٌ على ذي خلَّةٍ . . . أن لا يرى يتشوَّق) فربط بين الصَّاحبةِ والبرقِ في التبسُّمِ والتألُّق ، وهو ما أدَّى إلى هيجان الشوق في النفس ، وهو ما يلوح من مشاعر تحت رمز البرق ، وفي ذلك يقول ابن الزَّقَّاق[6] :

أشاقكَ إذ غنَّى الحمامُ المطوَّقُ ... ولمحُ سناً من بارقٍ يتألَّقُ

سرى موهناً تزجي الصَّبا غيمَ أفقِهِ ... وقد أضحكَ الروضَ الحيَا المتدفِّقُ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١٣١ .

(٢) الحدائق ، لأبي عمر بن فرج الجياني ، ص١١٧ .

(٣) المتبعّق : المطر الكثير الغزير الواسع ، انظر : اللّسان ، مادة (بعق).

(٤) ركامٌ : السحاب المجتمع بعضه على بعض ، انظر : اللّسان ، مادة (ركم) .

(٥) احمومى : الأحمّ الأسود من كلّ شيء ، انظر : اللّسان ، مادة (حمم).

(٦) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢١٣ .

فضمَّ إلى البرق الحمامَ ، وهو من رموز الحنين والشوق أيضاً ، وقال (أشاقك) وهو استفهامٌ قرَّر به معنى الشوق الذي سبَّبه هديلُ الحمامِ والبرق ، وجاء بصورةٍ استعاريَّةٍ لصبًا تدفع الغيمَ برفقٍ ، وروضٍ يضحكهُ المطر ، وأراد معاني الخصبِ والنماء ، وهي معانٍ أوحت بها صورة البرقِ المتألِّق الذي أثار كوامن الشوق بسناه ولمعه .

وإذا كان هذا الشوق قد أثار وجداً استدعى صورةً ضاحكةً مستبشرة ، لإشراق سناه ، فإنَّه قد يستدعي في شعرٍ آخر البكاء ، والأنين ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

وإن أومضَ البرقُ الحجازيُّ موهناً ... يردِّدُ في الظلماءِ أنَّة لهفانِ

ويقول ابن حمديس[2] :

وعذبُ الدُّموعِ دليلٌ على ... بكاءِ تبسُّمِ برقٍ وَمَضْ

كأنِّي من البعدِ إذ شُمْتُهُ ... جَسَسْتُ بعرقي عرقاً نبضْ

ترفَّعَ نحو ربوعِ الحِمَى ... وحلَّ عزاليُّهُ[3] وانخفضْ

فربَطَ ابن حمديس بين الدِّيارِ التي لاح من جهتها البرق ، وصبَّ مطره عليها ، ومعاني الشَّوق لمن سكن فيها ، الذي دلَّ عليه البكاءُ ، وخفقُ القلبِ المماثلِ لخفقِ هذا البرق ، وهي معانٍ عذريَّةٍ يرمز البرقُ فيها للحنين .

وفي هذا المعنى أيضاً يقول ابن الأبَّار[4]:

إن لاحَ بـرقٌ أو تـرنَّمَ أورقٌ ... صَبتِ[5] الضلوعُ وصابت الأحداقُ[6]

---

(١) ديوان ابن زُمْرُكْ ، ص٤٩٥ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٢٩٣ .

(٣) عزاليّه : يقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر الجود : قد حلّت عزاليّها . شبَّه اتساع المطر واندفاقه بالذي يخرج من فم المزادة والقربة ، انظر : اللّسان ، مادة (عزل) .

(٤) ديوان ابن الأبَّار ، ص٣٩٧ .

(٥) صبت : حنّت ، واشتاقت ، ومالت ، انظر : اللّسان ، مادة (صبا) .

(٦) صابت الأحداق : امتلأت ، انظر : اللّسان ، مادة (صأب) .

فربط الشوقَ الذي ظهر في امتلاءِ العيون بالدموع ، وحنين الضلوع ، برؤية البرقِ ، وترنُّم الحمام ، وهي من رموز هذا الحنين ، فَتَحْتَ لمع البرق معاني ((تمتدُّ إلى الشوقِ والحنين ، وحبِّ الأنثى ، واستحسان الجمالِ مع اليأسِ من أخذه كاملاً واستصفائِه)) [1] ، ولذا كثر في القصيد أن يرى الشاعر في تألُّقِ البرق تبسُّم من يهوى ، وفي لمعه وسناه وضاءةَ وجهها ، ونورها المشعُّ في قلبه ، يقول ابن زيدون[2] :

وإنّي ليستهويني البرقُ صبوةً ... إلى برقِ ثغرٍ إن بدا كاد يخطف

ويقول الأعمى التطيلي[3] :

أغمزُ عيونٍ وانكسارُ حواجبِ ... أم البرقُ في جنحٍ من اللَّيلِ دائبِ

كما يقول أيضاً يوسف الثَّالث[4] :

إذا ما امتطى البرقَ اليمانيَّ طيفهُم ... فإنَّ الكرى من خفقِ قلبيَ ينفرُ
يسَّهدُ في ليلٍ بهيمٍ كفرعَها ... وميضٌ كثغرٍ بالوصالِ يبشّرُ
ونسألُ نجديَّ البروقِ تعلُّلاً ... لعلّك عن دارِ الأحبَّةِ تخبرُ
تحنُّ إلى نجدٍ وقد حالَ دونَه ... طلابُ المعالي والقضاءُ المقدَّرُ
سَفَاهًا لعمري أنْ تؤمِّل قربه ... وقد لك وردٌ في لقاه ومصدرُ

ثمَّ قال بعد ذلك[5] :

فإن دمعتْ عيناكَ فلتبكِ يوسُفاً ... فذاك بموصولِ المدامعِ أجدرُ

والقصيدة محتشدةٌ بموضوعاتٍ شتّى ، وقال في مقدِّمتها إنَّها ((تشتملُ على أغراض متعدِّدة)) وأوَّلها[6] :

لعلَّ خيالَ العامريَّةِ يخطُرُ ... بأجفانِ عانٍ قد براهُ التستُّرُ

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ٣/١٤٦ .
(٢) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨٥ .
(٣) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٤ .
(٤،٥) ديوان يوسف الثَّالث ، ص٦٧ .
(٦) المصدر السَّابق ، ص٦٥ .

إذا اهتاجَ مـن بَـرحِ الغـرامِ غليلُـهُ تـداعَتْ شـؤونُ الـدَّمعِ عنـهُ تخبِّـرُ

وفيها نسيبٌ بدويٌّ وصف فيه لواعج الحبِّ وهواه[1].

فجعلَ الشَّاعرُ بالخيال ، البرقَ الذي يذكِّره بالمحبوبة ، راحلةً يمتطيها الطَّيفُ ليزوره ، ثم لمحَ في تبسُّم هذا البرق بشرى الوصال ، وسأله عنها تعلُّلاً بالسؤال ، وتشاغلاً به عمَّا يعتلج في القلب ، فجعل البرق راحلةً لطيفِ المحبوبةِ إليه مرَّةً ، وبشارة بالوصال أُخرى ، ومسؤولاً عنها ثالثةً ، ففيه حشدٌ لمعانٍ رمزيَّةٍ كثيرةٍ في خلال أبياتٍ قليلة ، دلَّت في الأسلوب على اضطرابٍ في مشاعرِ الحبِّ بين اليأس والرَّجاء ، فتارةً تزوره من يحب ، وتارةً يبشِّرهُ البرق بذلك ، وتارةً يسأله عنها ، ولذلك التفت بالأسلوب من الغيبة للخطاب ، في قوله (تؤمِّل قربهُ) ثمَّ قوله (قد لك) ، كما أنه فيها ذكر الأحبَّة الذين قضوا وتشوَّق لهم ، وشكى غدر الأهل ، وسوءَ معاملتهم ، وفخر بِشِيَمِهِ ، وشجاعته واختلطت المعاني فيها وتداخلت ، اختلاط صورةِ البرق ، وتداخلها في نفسه ، ولذلك حشد فيها من رموز البادية الدالَّةِ على الحنين والشوَّق إضافةً للبرق : اسم (ليلى)[2] ولقبها (العامريَّة)[3] و (النسيم)[4]، و(نجد) التي يقول فيها[5]:

أيصـبرُ عـن نجـدٍ فـؤادٌ متـيَّمٍ وتُنسـى ليـالٍ بالمصـلَّى وتُكفـرُ

فإن غبتُ عـن نجـدٍ فلـيسَ بغائـبٍ ضـميرٌ ينـاجي أو فـؤادٌ يفكِّـرُ

عسـى اللهُ أن يشـفي فـؤادَ متـيَّمٍ بـملـعـبِ آرامٍ به الأُسـدُ تـزأرُ

فَتَحَتَ رموزِ البادية ، تكمنُ دلالاتُ الحنينِ والشَّوقِ لما نزعَ له الشَّاعرُ من محبوبةٍ أو أرضٍ أو صفاء نفسٍ وجد الشَّاعرُ في رموز المكان ، والبرق ، والأسماء ، ما يدلُّ عليها ، ويوحي بها ، ويوصِّلُ معنى الحنين إليها .

(١،٢) ديوان يوسف الثَّالث ، ص٦٦ .

(٣) المصدر السَّابق ، ص٦٥ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص٦٧ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص٦٨ .

ومن رموز الحنينِ البدويَّةِ أيضاً (النَّار) ، ((والنَّارُ ممَّا يلحقُ بالبرق في بابِ الشَّوق)) [1] ، وقد كانت نيرانُ العربِ كثيرة ، ومنها نارُ الاستمطارِ [2] ، ونار التَّحالف [3] ، ونارُ المسافر [4] ، ونار الحرب [5] ، ونار البرق ؛ وهي التي يقال فيها ((كلُّ نارٍ في الدُّنيا فهي تحرقُ العيدان ، وتبطلها ، وتهلكها إلاَّ نار البرق ، فإنَّها تجيء بالغيث ، وإذا غيثت الأرض ومطرت أحدث الله للعيدان جدَّة ، وللأشجار أغصاناً لم تكن)) [6] .

ولعلَّ ارتباط البرقِ بالأمطارِ والخصب وتوقُّع الغيث جَعَلَ من نار البرقِ في الشِّعر رمزاً للحنينِ إلى ما يؤمَّلُ ويُرجى ، ويُنْتظرُ ويُرتقب وارتبطت الدلالات الحنينيَّة للبرق اللامع في السَّمَاء بالتوهُّجِ المنير للنار واشتعالها في الأرض ، فكانت النار في الشعر ترمز إلى تأجُّج الحنينِ واضطرام الأشواقِ للأحبَّة ، ولذلك كثيراً ما كانت تتجلَّى في اشتعالها صورة المرأة ، فقال امرؤ القيس [7] :

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ١٥١/٣ .

(٢) ((وهي النارالتي كانوا يستمطرون بها في الجاهليَّة الأولى ، فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتدَّ الجدب ، واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا ، وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ، ثم عقدوا في أذنابها ، وبين عراقيبها السَّلْعَ والعُشْرَ ، ثم صعدوا بها في جبلٍ وعرٍ ، وأشعلوا فيها النيران وضجّوا بالدُّعاء والتضرُّع ، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السّقيا ...)). الحيوان ، الجاحظ ، ٤٦٦/٤.
السَّلْع والعُشر : ضربان من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (سلع) .

(٣) ((وهي التي توقَدُ عند التحالف ، فلا يعقدون حلفهم إلاَّ عندها ، فيذكرون عند ذلك منافعها ، ويدعون الله عز وجل بالحرمان ، والمنع من منافعها على الذي ينقض عهد الحلف ، ويخيسُ بالعهد . . .)) . الحيوان ، الجاحظ ، ٤٧٠/٤ .

(٤) ((وهي النارُ التي كانوا ربما أوقدوها خلف المسافر ، وخلف الزائر الذي لا يحبون رجوعه)) . الحيوان ، الجاحظ ، ٤٧٠/٤ .

(٥) ((وهي النَّار التي كانوا إذا أرادوا حرباً وتوقَّعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً ليبلغ الخبر أصحابهم)). الحيوان ، الجاحظ ، ٤٧٠/٤.

(٦) الجاحظ ، الحيوان ، ٤٨٨/٤ .

(٧) ديوان امرئ القيس ، ص١٣٦ .

تنوَّرتُها من أذرعاتَ وأهلُهَا   بيثرب أدنى دارها نظرٌ عالي

((فقد جعل حبيبته كما ترى هي النَّارُ المتنوِّرَة)) [١] ، وفيها دلالة الشوق وتوهُّج الحنين إليها ، يقول عبد الله الطَّيب ((وأحسبُ أنَّ النَّار قد كانت ممَّا يرمز به من قريبٍ أو من بعيدٍ إلى خصوبةِ الأنثى وحيويتها ، وحرارة ما يكون من اشتهائها ، وقد قرنت العربُ قرناً قويًّا بين ذكر النَّار والمحبوبةِ في نسيبها ...)) [٢].

وقد كان الرَّبط قديماً في الشعر بين البرق ، والنار ، وهما رمزان قويَّا الدلالةِ على الحنينِ للمرأة ، والتشوّق إليها ، فقال النَّابغة [٣]:

أقولُ والنَّجمُ قد مالت أَواخرهُ   إلى المغيبِ تثبَّتْ نظرةً حارِ

ألمحةٌ من سَنَا برقٍ رأى بصري   أم وجهُ نُعمٍ بدا لي أم سَنَا نارِ

بل وجهُ نعمٍ بَدا واللَّيلُ معتكرٌ   فلاحَ من بين أثوابٍ وأستارِ

فلاح وجهُ نعمٍ بإشراقِ الأمل في النفس ، في خضمِّ اليأس الذي وصفه بالليل المعتكِر ، واجتمع في الرَّمز إليها ، سنا البرق ، والنَّار ، وما يحملانه من دلالاتِ الرَّجاء ، والشوقِ والنزوع إلى امرأةٍ بعينها ، أو إلى ما يعتلجُ في القلب ويحيكُ في الصَّدر ، كانت المرأة رمزاً له ، والبرق والنَّار رمزَا الشوقِ والحنين إليها أو إليه .

وقد ربط الشُّعراءُ الأندلسيُّون بين البرقِ والنَّارِ في التشوُّقِ أيضاً ، فقال ابن هانئ [٤] :

كلٌّ يهيجُ هواكِ إمَّا أيكةٌ [٥]   خضراءُ أو أيكيَّةٌ [٦] ورقاءُ

(١،٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ٣/١٣٤ .

(٣) ديوان النَّابغة ، ص١٤٨ .

(٤) ديوان ابن هانئ ، ص١١ .

(٥) الأيك : الشجر الكثير الملتف ، وقيل الأيك جماعة الأراك ، انظر : اللِّسان ، مادة (أيك) .

(٦) الأيكيَّة : الحمامة تأوي إلى الأيكِ ، انظر : اللِّسان ، مادة (أيك) .

فـــانظرْ : أنـــارٌ بـــاللّوى أم بـــارقٌ متـــــألّقٌ أم رايـــــةٌ حمـــــراءُ
بـــالغورِ تخبـــو تـــارةً ويشـــبُّها تحـــتَ الدُجنّـــةِ منـــدلٌ[1] وكبـــاءُ[2]
ذُمَّ الليـــالي بعـــدَ ليلتنـــا الـــتي ســـلفت كمـــا ذمَّ الفـــراقَ لقـــاءُ

فقوله (كلٌّ يهيج هواك) فيها دلالةُ الرموز البدويَّة ـ التي ذكرها بعد ذلك ـ على الشَّوق ، ومنها (الأيك) وهو شجر الأراك البدويّ ، والحمامُ ، والغورُ ، والبرق ، والنار ، وقد أراد بالنَّار ووصفها هنا ((رمزيَّة الشوقِ الغزلي والهوى دون مجرَّد نعتها الحسيِّ))[3]، فهي تارةٌ تخبو ، وتارةً يشبُّها مَندلٌ وكباء .

وأراد بقوله (تخبو) كمون الشَّوق وتواريه ، الذي لا يلبث أن تؤجِّجه وتشعله ، وتوقده الذكرى التي رمز لها بالمندل والبكاء ، لما فيهما من دلالةِ جمالٍ وإسعادٍ كانت عليه ليالي الوصلِ التي سلفت ، فذمَّ الليالي بعدها .

فـ ((في ضوء جدليَّة الخفاء والتجلّي تنزع نارُ الهوى المستترة إلى الإعلان عن ذاتها من خلالِ النار الحقيقيَّة التي تأكل الحطب ، مثلما تنزع المرأة المعشوقة إلى الاختفاءِ في عالم الظباء والمها والغزلان))[4].

ومن الأمثلة الأخرى على الشعر الأندلسيّ الذي ارتبطت فيه النار بالبرق ، في رمزيَّتهما على الحنين ، قول أحمد بن عبد الملك[5]:

ألا يا سَنَا البرقِ الذي صـــدعَ الـــدُّجى بإيـــمـــاضـــهِ عن أجرعِ القاعِ فالحمى
ويـــا ضـــوءَ نـــارٍ أُوقِـــدتْ وكأنّهـــا إذا التمحتهَا العينُ مـــن أنجـــمِ السَّـــمَا

---

(١) المندل : عود الطيب الذي يتبخّر به ، انظر : اللّسان ، مادة (ندل) .

(٢) الكباء : البخور والعود ، انظر : اللّسان ، مادة (كبا) .

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطَّيب ، ١٣٥/٣ .

(٤) النار في الشعر وطقوس الثقافة ، دكتور جريدي المنصوري الشبيتي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط . الأولى ، ٢٠٠٢م ، ص٩٦ .

(٥) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتّاني ، ص١٦٨ .

فذكرَ البرق وإيماضه من جهة المكان البدوي والنارَ الموقدة واشتعالها، وهما رمزان للشوق والحنين اكتفى بدلالتهما عليه، دون وصف لواعجه، ودلَّ على ذلك الشَّوق أيضاً أسلوبُ النداء، وتكراره في البيتين.

ومن الأمثلة على تلهُّب نار الهوى والعشق، قول أحمد بن فرج الجيَّاني[1]:

ولي بـالجزعِ ليـلٌ قـد تـمـطّـى　　فمـا سـاعاتُه إلاَّ ليـالي
لنـارٍ أومضـتْ فكـأنَّ قلبـي　　بـمـثـلِ لـهـيـبـهـا للشَّوقِ صالي
بعيـدٌ منتواهـا وهـي تُـذْكـى　　علـى كبـدي بقـربٍ واتِّصـالِ

فذكَر المكان البدويّ، وتلهُّب النيران من جهته، وما أججَّته من نيران الشوق، لمحبوبةٍ رمز لها بالنَّار البعيدة، ورمز لشوقه إليها بالقريبة (تذكى على كبدي) وهو ما يشبه تنوُّر امرئ القيس صاحبته من أذرعات[2]، ففيه دلالة الحنين إلى الصاحبة، ودلالة العشق والهوى المتلهب في جوانحه.

ومن الأمثلة الأُخرى على ذلك أيضاً قول أبي الحسن علي بن جودي[3]:

لقـد هـيَّجَ الـنيرانَ يـا أمَّ مالـكٍ　　بتـدميرَ ذكـرى سـاعدَتْها المـدامعُ
عشـيَّةَ لا أرجـو لقـاءَكِ عنـدَها　　ولا أنـا أن يـدنُو مـع اللَّيـلِ طـامعُ

فالحنين الذي رمز له بـ (أم مالك) (هيّج النيران) وذكرها بالجمع، لإرادته دلالة عظم الشوق، واستعاره للحرمان الذي دلَّ عليه قوله (لا أرجو لقاءك)، وانقطاع الرجاء في قوله (لا طمعٌ يدنو مع الليل) ولذلك رمزَ لتأجُّج العواطف بسبب الشَّوق مع الحرمان بالنيران، لاتصال النار بمعاني هذا الشوق.

فقد كان الشُّعراءُ الأندلسيُّون واعين لمفهومِ النيران، ورمزها للشَّوقِ والحنينِ في سياقِ وصف الهوى ولواعجه، لأنَّها تدل على اشتعال المشاعر وتوقُّدها في النفس، ممَّا كان يكثر ذكره في الشعر العذري البدويّ، ومنه قول المجنون[4]:

---

(١) التشبيهات، ابن الكتَّاني، ص١٦٩.

(٢) (تنوّرتها من أذرعات)، امرؤ القيس، ص١٣٦.

(٣) نفح الطيب، المقّري، ٥٨/٧.

(٤) ديوان مجنون ليلى، ص٢٥١.

بثمدينَ لاحَتْ نارُ ليلى وصحبتي بذات الغضا نزجي المطيَّ النواجيا
فقال بصيرُ القومِ أنحتُ كوكباً بَدا في سوادِ اللّيلِ فرداً يمانيَا
فقلت له : بل نار ليلى توقّدت بعليا تَسَامى ضوؤها فبدَاليا

ولذلك قال ابن هُذيل[1] :

وقفتُ على علياءَ والجزعُ بيننا لأنظرَ من نارٍ على البعدِ توقَدُ
تقومُ بطولِ الرُّمحِ إن هبَّت الصَّبا وعند سكونِ الريح تهدا فتقعُدُ

فذكر علياء ، والجزع ، وتوقُّد النار فيه على البعد ، وربط بين الصَّبا التي هي رمزٌ للحنين والأشواق والنيران التي يهيِّجها هذا الشَّوق ويثيرها ويؤجِّجها ، فوظَّف رموز البادية للدلالةِ على الهوى والعشق .

يقول ابن الخطيب ، جامعاً بين هبوبِ ريح الصَّبا والنارِ وتأجيجها للشَّوق[2] :

لله ما قد هجتِ يا ريحَ الصَّبا وقدحتِ[3] بين جوانحي من نارِ

فهذه النارُ المؤجَّجةُ بين الضلوع ، نارُ وجدٍ وهوى تغنَّى الشعراءُ بها كثيراً ، لدلالةِ معناها على اشتعال الشَّوق ولواعجه ، يقول ابن زُمْرُكْ يصفُ زيارة طيفٍ رفع له ناره[4] :

عجبتُ له كيفَ اهتدى نحو مضجعي ولم يُبقِ مني السَّقمُ والشوقُ باقيا
رفعتُ له نارَ الصَّبابةِ فاهتدى وخاضَ لها عرضَ الدُّجنَّةِ ساريا

فدلَّ بالشِّعر على أنَّها ((من نيرانِ القلبِ لا من نيران القرى التي تلوح للرَّكب))[5].

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتَّاني ، ص١٦٨ .
(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٦٧/١ .
(٣) قدحت : أشعلت النار ، انظر : اللِّسان ، مادة (قدح) .
(٤) ديوان ابن زُمْرُكْ ، ص٥١٥ .
(٥) المرشد ، عبد الله الطيب ، ١٣٨/٣ .

فالشَّاعر جمع في الدلالةِ بين رفع النَّار للضيفِ ليهتدي بها في القفار ، ورفع نارِ الشَّوق والهوى التي آنسها الطيفُ فألمَّ بالزيارة .

وكثيراً ما ذكر الشعراء في سياق وصف الهوى والعشق ، توقُّد جمر الغضا ، والغضا من نباتاتِ البادية ، ويقال لأهل نجد (أهل الغضا) لكثرتِهِ هناك ، وهو من أجودِ الوقودِ عند العرب[١] ، فكان للغضا ، النباتُ البدويُّ ـ بما عُرف عنه من أخذِهِ وقوداً للنَّار ، ووجودهِ في بيئةٍ بدويَّةٍ اشتهرت به ـ دلالاتٌ قويَّةٌ على اشتعال الحبِّ وتوقُّده ، فكان يجري في الشعر البدوي ذكر توقده في القلبِ وأرادوا الشَّوق ، والتقلُّب على جمره ، وأرادوا السُّهدَ والأرق ، وهما من علاماتِ الهوى .

يقول أبو بكر بن حبيش[٢]:

أيعلمُ سكّانُ الغضَا أن بُعدَهم ... يشبُّ الغَضَا في قلبِ مكتئبٍ عانِي

ويقول ابن الخطيب[٣] :

يعود فؤادي ذكرُ من سَكَن الغَضَا ... فيقعده فوقَ الغضا ويقيمُه

فالشعر الأندلسيّ الذي يصفُ الهوى والعشق وتُذكَرُ فيه النار كثير ، يقول أبو عبد الله بن حبوس[٤] :

ألا زارَ من أُمِّ الخُشَيفِ خيالُها ... ومن دونها البيداءُ يخفقُ آلُها

لقد أُوقدَتْ في القلب منّي جمرةٌ ... بدا في سوادِ العارضينِ اشتعالُها

فكنّى عمن يحبُّ بأمِّ الخشيف ، وهي كنيةٌ فيها بداوة ، لأنه أراد من ورائها النَّعت البدويَّ بالظبية ، فالخشف ابن الظبية أوَّلُ ما يولد[٥] ، وذكره بالتصغير

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (غضا) .

(٢) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٣٢ .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥٤٩ .

(٤) زاد المسافر ، التجيبي ، ص٢٧٩ .

(٥) انظر : اللِّسان ، مادة (خشف) .

لأنه أراد دلالة التحبب والتودد لها بذلك ، ووصف زيارة الطيف له على البعد ، وفيه استحضارٌ لمن يهوى بالخيال ، ودونه البيداءُ والقفار ، وهو بعدٌ أدى لاشتعال الشَّوق وتوقُّده ، ممَّا رمز له باشتعال الجمر .

فذكر الشعراءُ الأندلسيُّون النيران ، في النسيب البدويّ العذريّ ، لقوّةِ اتصالها بمعاني الهوى ، وقوّة الرمز فيها على الإيحاء بتوقّد الشَّوق ولواعجه ، ولذلك أفرد ابن داود في الزهرة باباً أسماه ((في تلهُّب النيرانِ أنسٌ للمدنفِ الحيران))[1] ، وفيه معنى الارتباط بين التشوُّق والنار ، ولذلك اتجه الشِّعر عند وصف الهوى والعشق إلى الرمز بالنَّار عن قوَّةِ المشاعر ، وحميميَّتها ، ودفئها .

* * *

(١) الزهرة ، ابن داود الأصفهاني ، ص٣١٩ .